

الفضاء الوجودي وتشظي الهوية في شعر عثمان الوصيف

Existential space and fragmentation of identity in Othman Al-Wassif's poetry

حمزة بوساحية*

Hamza Boussahia

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم - الجزائر

university of abdelhamid ben badis – mostaganem- Algeria

hamza.boussahia.etu@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2020/11/07	تاريخ القبول: 2020/06/25	تاريخ الإرسال: 2020/04/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى كشف الفضاء الوجودي وتشظي الهوية داخل المتن الشعري لعثمان الوصيف ويمكن القول أن هاتين القضيتين، قد ولدتا من رحم الفلسفة الوجودية بعد أن حل عصر التنوير الذي افتتح عصرا جديدا مليئا بالشكوك والهواجس وحالة من الاغتراب عن الوجود. وقد واجه الإنسان ذاته في مقابل المسلمات التقليدية القديمة. ووجد الأدب في هذه القضايا كعادته مادة خصبة في توظيفها بعد أن كان الأدب مجرد قصص ومواعظ، أصبح يحمل أيضا التحليل الفلسفي لتجارب الحياة ويبحث عن دلالتها وكشف خباياها. وقد حاولنا في هذا البحث إبراز البعد المكاني والزمني في الفضاء الوجودي وتوضيح دورهما في البناء اللغوي الذي استخدمه الشاعر لتبيان قلقه الوجودي. كما أظهرنا البعد المكاني في التعبير عن انكسارات هوية الشاعر ومحاولة إعادة بنائها ضمن وجود قلق ووضع متأزم. وخلصنا في البحث إلى أن توظيف الفضاء الوجودي ببعديه الزمني والمكاني في الشعر يعد وسيلة مهمة ليتخلص الشاعر من معاناته. أما بالنسبة للهوية، فإنه كان يبحث من خلال انكساراتها إلى إثبات ذاته الشعرية والوقوف مجددا في وجه عالم متغير غير ثابت.

الكلمات المفتاحية: وجود، هوية، ذات، اختلاف، زمان مكان.

This research aims to uncover the existential space and the fragmentation of identity within poetic Othman Al wassif's poetry. It can be said that these two issues were born from the womb of existential philosophy after the Enlightenment, which opened a new era full of doubts, concerns, and a state of alienation from existence. It faced man himself against the old traditional postulates. Literature found in these issues as usual a fertile

* حمزة بوساحية. hamza.boussahia.etu@univ-mosta.dz

material in its employment, after literature was just stories and preaching. It also carries a philosophical analysis of life experiences and searches for their connotations and uncovers their mysteries. We have tried in this research to highlight the spatial and temporal dimension in the existential space and to clarify their role in the linguistic structure that the poet used to demonstrate his existential anxiety. We also showed the spatial dimension in expressing the breaks of the poet's identity and his trial to reconstruct it within the presence of anxiety and a crisis situation. In the research, we concluded that employing the existential space with its temporal and spatial dimensions in poetry is an important way for the poet to get rid of his suffering. As for identity, he was looking through its refractions to prove his poetic self and stand again in the face of a changing and unstable world.

Key words: existence, identity, self, difference, time and place.



مقدمة

شكل الفضاء في الشعر المعاصر خطابا ثقافيا إبداعيا، ومحورا أساسيا في التعبير عن مظاهر حياة الشاعر ذلك لأن الشعر >>ليس مستودع النغم واللحن والمتعة الجمالية الخاصة ولكنه أيضا مستودع الحقيقة والمعرفة<<¹ وعليه فإن الإنصات إليه أصبح انشغالا لدى الباحثين المعاصرين بالكشف عن خطابات أنساقه ورصد إبداعيته المتجددة بتجدد الرؤيا والمنهج. ولقد تعددت خطابه وأنساقه بتنوع فضاءاته والتي نجد من بينها فضاء الزمن المفتوح على الوجود الذاتي، وفضاء المكان الصحراوي المفتوح على آفاق الهوية؛ حيث سعى من خلالها الشاعر إلى محاولة معرفة جوهر الوجود عن طريق >>تمثله لشروط واقعه الفردي والجماعي بكل ما يتقاضفه هذا الوجود من أخطار وحتميات وإعاقات وأسئلة تناجا وجدانيا ومعرفيا يطرح سؤال الوجود بكل عمقه ومأساويته<<² ليشكل وعيه ووجوده، ففضاء الزمن والمكان شكلا صراعا داخليا يتجاذب فيه الشاعر بين وجوده وهويته.

وتتمحور إشكالية هذا البحث في مايلي: ما هي أهم الأنساق التي شكلها فضاء الزمن والمكان في ذات الشاعر عثمان الوصيف بين قلقه الوجودي وبين تشظيه في الفضاء الصحراوي الفسيح؟ وما مدى انعكاسات هذه الأفضية على مستوى الكتابة الشعرية في ظل الجدليات

والأنساق المتصارعة فيه ومعه؟. ليسعى بحثنا إلى تقديم قراءة تضع فيه فضاء الزمان والمكان موضع السؤال الثقافي والوجودي والجمالي من خلال تفكيك الخطابات الشعرية ومعرفة أنساقها.

أولاً- الفضاء الوجود وتجلياته في الزمن

يعد الزمن أحد المكونات الأساسية التي يقوم عليها الوجود الإنساني، فهو روحه وجسده في الآن نفسه، المتحرك فيه حركة مرئية ولامرئية، المتنقل فيه ماضيا وحاضرا ومستقبلا، إنه النهر السائل المتدفق بأزليته ولانهايته³، فالزمن بهذا التصور غامض في تجليه، مما جعل الشاعر العربي منذ القدم وحتى الآن، يحمل على عاتقه حلم اكتناؤه وتجليته كفضاء متخيل يكسر به هاجسه الذاتي، فينتقل من ماضيه المتأزم إلى مستقبله الحالم. وهذا ما سنحاول اكتشافه من خلال تسليط ضوء المكاشفة الشعرية على دواوين عثمان لوصيف.

1- الذات وفضاء الزمن بين نريف الذاكرة وقلق الموت

يأتي الزمن بأطواره الثلاثة (الماضي/الحاضر/المستقبل) في الخطاب الشعري على عدة أشكال وقد لاحظنا أن الزمن في مقاطع هذا الخطاب قد تجلى بطابع مأساوي، يخفر في نسق الزمن الماضي والحاضر محاولا استشراف المستقبل، مثلما نجد ذلك في قصيدة "أحزان" من ديوان "الإرهاصات"، يقول الشاعر:

الليل هنا غابة أشباح

تفجر آتات وجراح

ونشيجا يأتي من أقصى الوديان

والمدن تفلقها الوحشة

والجهش .. والعرش

وتعربد فيها أسراب الغربان

وأنا مازلت هنا سهران

تتناهشني النيران

أحزان

أحزان..⁴

تعلو في هذا المقطع نبرة تراجيدية، تنعكس في كثرة الألفاظ الدالة على مأساوية المشهد (كالوحشة الجهشة، الرعشة، تناهشي، النيران) وتعبر هذه النبرة عن ذروة الضياع والتلاشي الزمني المطلق ومواجهة الأحداث العظيمة وقد أشار الشاعر إلى ذلك في اختياره لهذه الجمل الشعرية (الليل هنا غابة أشباح/تنفجر آتات وجراح)، ثم ينتقل بعدها إلى ذاته الجماعية المتأزمة عبر الزمن الماضي ممثلاً في المقطع الذي يليه من القصيدة نفسها، يقول:

مازلت على الأفق الظمآن

وفلسطين فردوس يبحث عن عنوان

برج منسي في أقصى الأزمان

قيتار مقطوع الأوتار

بيت لا تتراقص فيه الأنوار

لا طير يغرد.. لا ريحان

لا عطر يفوح على الربوة

لا لحن يدندن.. لا عنوة

الأرض تنادي يا إنسان؟⁵

تستمر نبرة التراجيديا في الصعود، بسبب أثر نسق الزمن الماضي وتغلغله في أنا الشاعر (مازلت على الأفق الظمآن) ثم يتحول الشاعر من وجعه الذاتي فجأة إلى وجع الضمير الجمعي وقد جسده في صورة فلسطين السلبية التي ترمز إلى الذات العربية الباحثة عن الانتصار والحرية والانعتاق من الذل والهوان. ويحس القارئ من هذه التراكيب انبعاث رائحة الزمن الميت بداية من لفظة "مازلت" التي توحى بالاستسلام والقلق الوجودي إلى أن تنتهي بالنداء في محاولة للنجاة والخلاص. ويحاول الشاعر بعدها إيقاظ الضمير الجمعي مستخدماً نسق الزمن في قوالب متنوعة تارة في ثبات يوحي بالتفتت والتلاشي وتارة أخرى بالحركة والمطلقية. ونجد هذا النوع الأخير في قصيدة "صرخة فدائية" التي يقول في مطلعها:

خلني للنار أمضي

بين أمواج الحداثق

واصطخابات البنادق

فاتحا درب الرياح العاصفة
والأغاني النازفة
صامدا والرعد يدوي
صامدا والأفق يعوي
والصاعق...⁶

فعبارة (خلمي للنار أمضي) تفتح أمام الشاعر أبواب المطلق واللامحدودية في امتداده الزمني (ماضيا وحاضرا ومستقبلا) وفي هذا الإقحام للامحدودية يكون الزمن والشاعر ملتحفان ألما وفرحا موتا وحياة اختلافا واتفاقا حيث لا يمكن التفريق بينهما⁷ إذ وظف الشاعر ثنائيات ضدية عبر بها عن هذا الالتحاف (فاتحا درب#الرياح العاصفة/الأغاني#النازفة/صامدا# والرعد يدوي صامدا # والأفق يعوي) ليتحول <>النص في، حد ذاته، مسرحا لحركة جدل لا تعرف التوقف ولا يدركها السكون>>⁸. أما في ديوان "أبجديات"، فقد لاحظنا أن الشاعر يعيش بين عاملين وفي مقطع من قصيدة (آه أواه) هذا العنوان الدال على الحسرة تارة والنفي تارة أخرى يبين لنا ذلك:
آه.. أواه؟

أيوب لَمَّا يزل يتناسخ فينا
وها نحن عبر العجاج
نعض على الجمر
نمشي على الأشواك
نرفع أشلاءنا راية تتلألأ
أو آية قدسية
ونخوض في العتمات /.../
نمضي.. ونمضي
تدثرنا الكلمات - النجوم
وتنزف ملء جراحاتنا الأبجدية⁹

يصور المقطع السابق حيرة السؤال عند الشاعر (آه أواه؟)، حيث نلاحظ أن مستوى الرؤيا الشعرية للزمان والمكان تتموضع بين الرؤى الدينية الايجابية (أيوب لما يزل يتناسخ فينا) وعالم اللغة

المتخيل (تدثرنا الكلمات-نجوم) وبين الواقع المتأزم (نعض على الجمر/ نمشي على الأشواك) فالرؤيا الشعرية قد انقسمت إلى ثنائية تمثلت الأولى، في عالم النبوة وعالم اللغة المتخيل، أما الثانية، فهو العالم الواقعي المستكين إلى الظلمات. فتصبح عندها رؤيا الشاعر رؤيا تبحث عن الهوية <<فالهوية في المنظور الإبداعي، ليست في إنتاج الشبيه، وإنما في إنتاج المختلف>>¹⁰ ليعلن بذلك عن مقولة الاختلاف في المقطع التالي:

صعاليك نحن.. ولكننا نوقد في الروح

ونعتصر القلب

نكسر قارورة الشعر

نفتض ختم الغوايات

نطلق مجرة الأبجديات

كي ترهص الأرض بالأنبياء¹¹

في هذا المقطع نجد حضورا قويا لفكرة الاختلاف من خلال مساءلة نسق الزمن الماضي (صعاليك نحن/ولكننا نوقد في الروح..) حيث يأتي بالماضي ويحله في الحاضر، وهذا يدل على الحرب التي يعلنها الشاعر على التقاليد الشعرية القديمة، فإذا كان صعاليك الماضي تمردوا عن القبيلة فالشاعر صعلوك تمرد على نظام الشعر واللغة والحياة بزمانها ومكانها، فيكون تمرد الشاعر وسيلة للتحرك نحو الأمام في مسار الإبداع الشعري، ليحقق وجوده الخاص خلافا لما هو كائن. ويبدو أن قلقه الوجودي هو الذي ينسج طابع القصيدة الدارماتراجيدي الذي يدفعه إلى التساؤل ومساءلة نفسه أمام مرآة زمنية ويمكننا ملاحظة هذا الطابع في مقطع من ديوان "اللؤلؤة" يقول:

طاعن في السواد

في مهب الفجيرة

أتبع خطوك عبر دخان المدائن

وهي تموت..

وأسأل،

أسأل ساحرة الليل

عن نخلة في الرماد

حملت في مواجهها شمسنا المطفأة¹²

لنلاحظ أن المرآة الزمنية التي ضاع فيها الشاعر، هي حاضره المؤلم (طاعن في السواد في مهيب الفجعية) ومستقبله المجهول (أتبع خطوك عبر دخان المدائن/وهي تموت.. >> ليتوحد سؤال العدم والمصير/.../ [بسؤال] صيرورة الزمان/.../ الذي لا ينفك يسير مثل النهر الدافق، باتجاه واحد في طريق اللاعودة>>¹³ وعبر تلك الأسئلة يتشتت الشاعر ويضيع إلى أن يجد الإجابة عن سؤاله في المقطع التالي:

كلنا نتأبط شرا

نسميه شعرا

هو الحرف يعرف من غضب

ويدخن مثل السنادين

تحت المطارق..

آه! من الليل حين يجن

وآه! من الشاعر الصب حين يجن

فيضرب في التيه الفيافي¹⁴

فتكون بؤرة الزمن بؤرة محورية، يقوم عليها بناء التشكيل الشعري حتى ولو تمظهر بالمكان كما نلاحظه في هذا المقطع (آه! من الليل حين يجن وآه! من الشاعر الصب حين يجن فيضرب في التيه الفيافي) فذلك ليس احتفاء بالمكان في ذاته إنما هو استرجاع للذاكرة الزمنية في المكان أو بعبارة أخرى ترمين المكان¹⁵ ونجده في مقاطع أخرى، قد وظف بعض الشخصيات الأدبية التي شكلت ثورة وخروجاً على زمانها قديمها وحديثها¹⁶ (صعاليك/والشغرى ينتضي قوسه/ويصب سهاماً..¹⁷) أنت! إله الخصوبة والبعث! يا.. يا أدونيس!¹⁸.

2- الشعر وفضاء الزمن أزمة التاريخ ومقاومة الذات

يعد الشعر كشفاً للوجود وتحلية للملموس، يسعى الشاعر بواسطته إلى إعادة مساءلة وتشكيل الوجود للوصول إلى رؤية تحتاح العمق، باعتبار أن الزمن يمثل عمقا وجوديا، حيث يصبح بين الشعر والزمن قرابة؛ يحاول الشعر بعدها ملاحقة ذلك الخفاء الزمني الكامن في الخطاب

الشعري وتجليته لحظة المكاشفة¹⁹. وهناك العديد من النماذج الزمنية التي ساهمت في بلورة هذه العلاقة كما في المقطع الآتي:

لن نهاب الأعاصير

لن نهرب الموت..

من دمنا المر تنبجس الكلمات

وتسطع شمس الوجود

فتنسب في جسد البشرية

تلك الشعاعات

آه .. نبي اعتنق البرق

ثم استوى شاعرا

يتغنى فتحتفل الأرض

وتزهو الرمال

وتزهو بالزنبق المستحيل!²⁰

يتحرك هذا المقطع في نسق حركي فاصل وواصل بين الزمن والمستقبل، فيضم داخله نداء إلى المابعد. ويصبح نسق الزمن متصاعدا من الماضي الدامي إلى الوقوف عند الحاضر المتأزم متجها صوب المستقبل المجهول حينما والمستقبل المضيء حينما آخر. فيجعل الشاعر من الزمن في مرحله الثلاث وجعا موحدًا²¹ بتوظيفه جملة من الضمائر تتمثل في (أنا- نحن- أنت- هم) وتتحرك هذه الضمائر، وفق نسق زمني، تحركا منتظما؛ حيث يدخل الشاعر(ضمير الأنا) في علاقتين مختلفتين مع أناه الجماعية (نحن) فتكون العلاقة الأولى علاقة اتصالية في حالة ما استرجع ماضيه ونظر إلى حاضره، أما الثانية، فهي علاقة انفصالية تكمن في تطلعه إلى مستقبله محاولا مكاشفته وصنع مستقبل مغاير لماضيه وحاضره، وتكون العلاقة بين الأنا الجماعية(نحن) والمخاطب(أنت) انفصالية لأن صورة المخاطب تنجز صورة معادية للأنا لتتسع الهوة بين ضمير(الأنا- نحن) وضمير(أنت) وتزداد المسافة بينهما. أما العلاقة بين ضمير المخاطب (أنت) والغائب (هم)، فهي علاقة اتصال إذ تقيم حلفا مع الماضي وتركن إليه. وفي ديوان "نمش وهديل" نجد توصيفا لهموم الذاكرة الجماعية بضمير المخاطب أنت:

سائخ أنت.. في هذه البركة المالحه
في الطحالب، في الطين، في الأوبته
ليس بين يديك سوى
هذه السعفات المريضة
والضفادع.. والرغوة الطافحه
سائخ.. سائخ،
آه! يا زمن البهجة اللؤلؤة
والرذافات
عبر السماء العريضة
هل ستومض تلك البروق.. البروق
وترتعش السحب الجامحة؟²²

فتزداد العنفوانية والمواجهة إلى أن تبلغا ذروتها، باستخدام الاستفهام الإنكار والنفي (هل ستومض تلك البروق.. البروق وترتعش السحب الجامحة؟) وتصبح صورة هذا الحاضر مطابقا للماضي، بإخراج ضمير أنت أو المخاطب من دائرة البشرية، إلى مصاف الحيوانات (في الطحالب في الطين، في الأوبته/ليس بين يديك سوى/هذه السعفات المريضة/والضفادع/والرغوة الطافحه) وهذه الاستخدامات تشي بفقدان العقل والنزوع إلى التبعية العمياء التي تعيد النتائج نفسها ويقدر ما تكون هذه المواجهة عنيفة بقدر ما يظهر الارتحال إلى التغيير والتجاوز لهذا الماضي وإيقاظ الحاضر التي دلت عليه أفعال المضارع (ستومض وترتعش) والنظر في مرآة عاكسة وإعلانه هو الآخر لمرحلة التجاوز²³. أما في ديوان "أبجديات"، فتتغير صيغة الخطاب إلى خطاب أمري يتوحد من خلالها الشاعر والماضي والحاضر بالموت:

أيها الملك الأزلي

المتوج بالفقر

قم! نفذ الخبز والزيت

قم! نفذ الملح والغاز والأشربه

قم! فراخك سيكون من سغب²⁴

يصدر الخطاب الشعري في هذا المقطع، بصيغة الأمر الذي نتج باستخدام الفعل المتكرر "قم" عن الأنا الشعرية المتوحدة بالتاريخ (أيها الملك الأزلي)، وقد اتجه إلى ضمير المخاطب للجماعة في زمنيه الماضي والحاضر المشكل لرمز ثقافي تاريخي لكن القول بهذا الأمر يصعب تحقيقه أو تحققه فتكون هذه الأنا عاجزة عن إحياء الماضي وبعثه وإيقاظ المخاطب في الحاضر الآتي²⁵ من خلال ولوجه لعالم السر، عالم الإبداع:

تتكسر بلورة الفجر

تسطع عيناك

يتهمر الضوء سلاسل حلم.. وودندنة

أرهف السمع

أصغي لأجراس تندفق

مغسولة بالوميض الإلهي..

للضوء أجنحة.. وعساليج

للضوء هفهفة.. ومزامير تصدح بالشعر²⁶

إن ما يسترعي النظر في هذه المقاطع تلك الدفقة الدلالية لنسق الزمن(الفجر/تسطع/الضوء لأجراس السمع/ بالوميض الإلهي) التي توحى بتوحد الشاعر مع الزمن وإحساسه بسلطانه كما تشي هذه المقاطع. وقد قسم الشاعر الزمن في هذا المقطع إلى قسمين: زمان خاص وزمان عام أو هو ما عبر عنه المفكر "عبد الوهاب المسيري" بالزمان الكوني والزمان الإنساني قائلا: <>أما الزمان الكوني، فقد تكون له بداية ولكنه لا يعرف النهاية، فهو شكل من أشكال الأزلية، لا يعرف مرور الزمان ولا الصراع ولا الموت ولا الحدود وهو في العادة زمن دائري/.../أما الزمان الإنساني، فهو الزمان الاجتماعي والتاريخي المادي، وهو الزمان الذي نعيش فيه، فنعرف الصراع والأفراح والحدود وهو ذو بداية ونهاية ولذا فهو، يأخذ شكل خط مستقيم>>²⁷. فالشاعر يعيش في الزمن الكوني (الوميض الإلهي) ليخفف عن نفسه أوجاع ماضيه الإنساني ويحاول تحويل الزمان الإنساني (الفجر/الضوء/تسطع) إلى زمان كوني ليتمتج الزمن باللازمن ويصبح هذا الأخير تجاوزاً للقلق الوجودي الذي يعاني منه الشاعر. كما أن في هذا الجمع نوعاً من المقاربة الفينومينولوجية

كونها حفرا في بنية الزمن العقلي وتجاوزا له لكسر وتيرة الوضوح الإنساني وخلخلة ثباته المعرفي لاكتناه أصل الزمن ومطلقته في ذاته²⁸. وفي المقطع التالي، تتأكد كونية الزمن والوجود:

ها سماؤك تفتح أبوابها

والبراق الإلهي يحملني

في رفيف جناحيه ثم يطير

السلام على الأنبياء

أرى سدرة المنتهى تتلألأ بالخضرة الأزلية²⁹

فالملاحظ في هذا المقطع، توظيف تراكيب دينية (والبراق الإلهي/الأنبياء/سدرة المنتهى/تتلألأ بالخضرة الأزلية) التي توحى برغبة في الولوج إلى عالم السر والعروج إليه من خلال الرؤيا الشعرية للشاعر ليجعل من الشعر مساءلة له ومن ثمه يمنح لنفسه جواز اختراق المستقبل والمابعد وانطلاقه إلى بناء عوالم متخيلة. والمقطع يبين كيفية اختراق نسق الزمن ماضيا وحاضرا إلى اللازمنية التي جسدتها تلك التخيلات:

ها أناذا أضرم النيران

أعدو.. أغني

إن هذا زمني..

ها أناذا أتعرى

آه! من يفهمني؟

ليس ما عندي ورود

للخليفة

كل ما عندي رعود

وقذيفه³⁰

هكذا تفجر الأنا المتخيلة عذاباتهما إلى مواضيع تلذذ، فتحول مأساتها إلى فعالية إنتاجية تصنع من خلالها بكاره الأشياء في لحظة المكاشفة والتحول باللغة وعبر اللغة³¹.

ثانيا- تشظي الهوية وتجلياتها في المكان

بين فضاء الوجود وتشكلات الهوية وتشظيها، تطرح الذات قلقها الوجودي عن طريق الكتابة، وتتأمل روحها في سياق فلسفي، وتجذب في التعبير عن هويتها متنفسا لانكساراتها الوجودية وبحنا لهويتها المفقودة لذلك يجب <<البحث عن الهوية ومتابعة صناعتها باستمرار، لأن البحث عنها، يعني [إنها] منجزه ولكنها ضائعة، يجب البحث عنها لاستردادها>>³² وهذا ما سعى إليه الشاعر عثمان لوصيف إلى تجليته في كتاباته الشعرية.

1- مفهوم الهوية

اهتم الأدب بمسألة الهوية كقضية مهمة اختصت بتحديد مفهوم الأنا في الوجود، وفهم الآخر الذي نتقاسم معه هذه الحياة. وقد شغلت هذه القضية الأدباء والفلاسفة على السواء خاصة، بعد أن حل عصر التنوير الذي حمل معه تغييرات عميقة، شملت مفهوم الوجود الإنساني ومواجهة الإنسان لذاته بعد أن استبعد الموروث القديم، لكن سرعان ما وجد الإنسان نفسه في حالة من الاغتراب.

وقد طرحت مسألة الهوية جملة من القضايا، تعلق بمفهوم الأنا وعلاقته بالوجود، ومن بين ما أثارته هذه القضية مجموعة من الأسئلة لعل أهمها: هل أنا هو أنا؟ هل أنا ما أنا عليه بسبب الظروف التي أعيش فيها وأتأثر بها؟ ولماذا هذا الوضع الاجتماعي؟ وماذا يعني المحيط السياسي؟ وماذا تعني هذه الصراعات والحروب؟ هل هذا ما كنت أطمح إليه أم أنه غير ذلك؟ وقضايا أخرى تتعلق بهوية المكان والزمان والصراعات الثقافية وما تحمله من تحديات وجودية على قيم الأمة. كل هذه الأسئلة وغيرها نرى أنها تجد صدى في شعر عثمان لوصيف والذي بدوره تعامل معها كشخصية واعية بذاتها ومدركة لقيم الحداثة الوافدة من الضفة الأخرى، مما جعلته يتعرف على الآخر الذي تتعارض قيمه مع قيم الشاعر وقد حملت كتاباته الشعرية قلقا وجوديا وهوية متشظية تفتح على الأمل تارة وتغلق على الألم والمعاناة والصراعات الفكرية التي لا تنتهي تارة أخرى، فلا هو من أنصار الموروث ولا هو من أنصار الحداثة. وقبل الولوج في تحليل أبعاد الهوية وانكساراتها داخل الفضاء الشعري، نعرض على مفهوم الهوية لغة مع تحديد معالمها وحدودها في الجانب الفلسفي.

تشير أغلب المعاجم اللغوية إلى أن كلمة الهوية منحوتة من الضمير "هو" وتعني الهوية: <<حقيقة الشيء أو الشخصية المطلقة المشتملة على صفاتها الجوهرية>>³³. ومعنى ذلك أن الهوية لا تخرج عن أن تكون الشيء هو هو وليس غيره ولا تبتعد عن هذا المعنى في المعاجم الفلسفية. فقد ورد تعريف الهوية في المعجم الفلسفي على أنها: <<مميزة فرد أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه إنه متمم أو أنه هو ذاته في مختلف فترات وجوده>>³⁴. بينما يذهب حسن حنفي إلى <<أن الهوية مشكلة نفسية وتجربة شعورية، فالإنسان قد يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها في غيرها>>³⁵ إلا أن بعض الفلاسفة يعتقدون أن الهوية مجرد افتراض ميتافيزيقي في حين يمكن أن يكون كل إنسان مغترب بطريقة أو بأخرى.

موازاة مع مفهوم الهوية، نجد مصطلحا آخر له علاقة وطيدة به، وهو الاغتراب. فقد جاء في المعجم الوسيط لابن فارس أن الاغتراب أصله ثلاثي من الفعل (عَرَبَ) فقال: عَرَبَ ومنها العُرْبَةُ؛ أي البعد عن الوطن، ويقال عُروِبُ الشمس أي بعدها عن وجه الأرض، وكذا مُعَرَّبٌ أي بعيد عن موطنه³⁶ ليبدل معناه اللغوي على البعد والابتعاد والنفي، والتغريب.

أما من الناحية الاصطلاحية فيرى عبد الإله الصائغ بأنه <<موت الصبر وانبعث الحلم المستحيل، الحنين إلى الماضي. النص المغترب شاذ كتبه، شاذ لمجمع شاذ الغربية عن الطبيعة والمجتمع والأصحاب والذات جزء من تصاعد المبدع في معراج النمو - الاغتراب كامن في كل الأزمنة والأمكنة والحضارات ولكت تعبيراته مختلفة/.../هو تمرد على المكان والزمان والأهل والوظيفة، وهو ثمرة مرة لفقدان أشياء عزيزة لا تعوض>>³⁷. ووفق هذا التصور نجد أن الاغتراب جزء لا يتجزأ من الحياة الثقافية والاجتماعية للمبدع؛ حيث يقف أمام واقعه المتأزم وكل تلك المشاهد الطاغية بالقهر والاضطراب مكتشفا ومتخطيا ومتجاوزا إياها بتأمله الشعري وصهر الفعالية الإنسانية بقوى اللغة التي تتجلى أبعادها في الوجود الاجتماعي والثقافي والإنساني.

وعليه تنحدر العلاقة الكامنة بين الهوية والاضطراب في علاقة الإنسان بالمكان الذي يؤسس وجوده، لأن محاولة التخلي عنه، والرحيل إلى مكان آخر، إنما هو في الحقيقة تمهيش للذات وتاريخها. ولا نقصد بالمكان هنا المكان الجغرافي فقط، بل على عكس ذلك نفتح الباب على الأمكنة المتنوعة فالشاعر له أفق التحول والتجول اللامحدود، فتارة يكون مكانه صوفيا، وتارة يغدو يوتوبيا في اللامكان وتارة أخرى يتنزل إلى تلمس رمال صحرائه، مشتما إلى رائحة الأرض

الحبي لتاريخ الذاكرة والوجود. ليكون شعر الاغتراب >>مخرجًا للنفس من محبسها ومُتَنَفِّسًا للمُعَدِّين ومُنْتَظَمًا يعيد الشاعر لحالات الأثران والثبات، والانصياع لمُجريات الأحداث الغالبة والرضوخ وقبول الانكسار، وهو يُعَدُّ مُعادلاً موضوعيًا يُعيد للنفس استقرارها وهدهدها >>³⁸ وهذا ما نجده موظفًا في دواوين عثمان الوصيف.

2- الهوية وفضاء الصحراء غربة الذات وجهل المآل

ينحدر الشاعر عثمان لوصيف من مدينة بسكرة، هذه المدينة التي تعد بوابة الصحراء الجزائرية وتعرف هذه المدن عزلة عن الشمال المنفتح على الإعلام والأضواء وعلى العالم الخارجي. وقد أثر هذا الوجود في نظرة الشاعر لذاته وأحدث انفصالاً في هوية الشاعر عن ذاته واغتراباً عن طموحاته، خاصة بعد أن حُرِم انتشار شعره، يقول حسن حنفي: >>وقد تتحول الهوية إلى اغتراب تنقسم الذات على نفسها وتتحول، مما ينبغي أن يكون إلى ما هو كائن من إمكانية الحرية الداخلية إلى ضرورة الخضوع للظروف الخارجية بعد أن يصاب الإنسان بالإحباط والإحباط عكس التحقق وضعف الإرادة وخيبة الأمل وتخل عن الحرية تشعر بالحزن دون معرفة السبب وتشعر باليأس >>³⁹، يقول الشاعر:

منفي أنت .. يحاصرك الرمل

ويزاحم مضجعك النمل

في سبخة هذي البلدة ..

حيث الموت .. فلا نوار و لا أزهار

آه .. يا نار الجرح

ويا جوع المزمار

مكسور أنت هنا .. مكسور⁴⁰

إذ بدت نفس الشاعر منكسرة يحاصرها المكان ويؤلمها وجع الإبداع، بينما يأتي إبداع الآخرين ممزوجاً بعقب المروج وسحر المكان، في حين يعيش الشاعر الخريف الدائم، فيثور من حالته ويتحسر على مدينته التي أكلتها الرمال وغشتها صور السبخات المألحة ورغم كل معاناة الإبداع، فإنها لم تشفع له في الظهور والانتشار.

صقر يتوثب

لكن ليس يطير

آه .. يا زنبقة الأوجاع

آه .. يا معجزة الإبداع

هل ينفي الشاعر في مسقط رأسه؟

هل نار الحرف تضاعف من نحسه؟⁴¹

تصير الصحراء مكانا موحشا للشاعر وباعثا للتحسر، بينما نجد من المبدعين من فضلوا العيش في الصحراء تاركين مدحهم الجميلة خلفهم ولو أن عثمان لوصيف عاش في هذه الأماكن لطلب العودة إلى الصحراء، وهذا ما يفسر مفهوم الهوية والتي تتمثل في هذه الحركات الالتوائية والاختلافية والتعارضية التي تعيشها النفس البشرية وتلك المسافات المتباعدة المتقاربة في الوقت نفسه، ثم يأتي سبب آخر ليزيد وضع الشاعر قتامة ويضاعف من مأساته ويبعث في روحه قلق الكتابة وتصبح الكلمة هاجسه الأول والأخير ومن أجل ذلك تتأزم حالته النفسية وتنفصل ذاته عن واقعه، رغم أنه كما يقول، يحمل في نفسه قوة متوثبة غير أن الحياة نالت منه ومن إرادته.

يدخل الشاعر، بعد ذلك، في انفصال تام بين ذاته المسلوقة وبين الواقع السياسي المفروض عليه حين يرفض مساندة السلطة والاصطفاف إلى جانبها ولا يكتفي عند هذا الحد فيقوم وكعادة المبدعين الثائرين بالابتعاد عن السلطة التي تعمل على حشد المناصرين لها، دون أن ينسى الشاعر أن يثبت ذاته بذاته ويحقق أحلامه رغم وضعه المأزوم وحالة الإحباط التي يعيشها يقول حسن حنفي: <>يثق الإنسان بنفسه ويسترد شجاعته، ويتخلى عن عجزه، ويحقق ما يحلم به، ويصبح ما ينبغي أن يكون لا ما هو كائن. لا يستطيع استرداد هويته كاملة ومرة واحدة، يحتاج إلى وقت وجهد زائدين فالهوية إمكانية لا واقع <>⁴²، يقول الشاعر:

ليس ما عندي ورود

للخليفة

كل ما عندي رعود

وقذيفة

ولأني ... يا نسوري الوالهة

ليس تغويني الطقوس النافهة

ولأني راغب عن كل نصب
قد لعنت الآلهة⁴³

كما يعيش الشاعر اغتراباً آخر عن هويته، يتمثل في انفصاله عن الوجود الذي يحيا فيه باعتباره مثقفاً ومبدعاً، يقوم بكشف الوجود وفهمه. فهو لا يرى ما يراه غيره من العامة، وهو في هذه الحالة أقرب إلى ما يعانیه الشعراء والفلاسفة الذين يخلقون عالمهم ويلوذون بالصمت وينعزلون عن واقعهم، وفي ذلك يتألمون أشد الألم، فيزداد إحساسهم بالوجود، <إن الشعر طريقة من طرق تصميم الحقيقة المنير؛ أي الشعر بهذا المعنى الواسع. إلا أن العمل اللغوي، أي الشعر بمعناه الضيق له مكانة متميزة في مجموع الفنون>>⁴⁴ وبهذا المعنى يُعد الشعر انفتاحاً من أجل إنتاج معنى للعالم الذي لا يخضع لأي مواصفات محددة، فهو ينقل الوجود الإنساني، يقول الشاعر:

برغم هذا العفن البوار

ورغم ليل القش والغبار

أظل يا أميرتي

مخوضاً في زوابع النار

في بحر هذا الزمن

الطافح بالرغو وبالقشور

أبحث عن جوهرة

أضعها في نحرك المسحور⁴⁵

ليصنع من خلال تلك الصورة حركة دؤوبة غير قابلة للشبات والسكينة، صورة متوهجة بحب نغم الحياة والتي تشكلت من خلال البنية اللغوية المهيمنة على هذا المقطع هي (أظل يا أميرتي) فالفعل أظل يوحي بالمقاومة، التي تجسدت في تكرار حرف الراء الدال على كثرة الحركة وعدم الاستقرار. يدخل الشاعر بعدها في حوار مونولوجي ممزوج بنبرة تشاؤمية تنبأ عن هاجس الشاعر الأكبر في كتابة نصه الشعري الذي يحلم به و الذي لم يتحقق بعد، يقول الشاعر:

أشرد في هواجس المحار

مهوما خلف مياه الليل

حيث الجرس الخفي

وحيث يلقي ربه النبي

أوغل في طلاس السحر

وفي مدائن الأسرار

أغيب في دوامة الإيقاع⁴⁶

وفي رحلة بحثه عن النص الشعري الذي لم يكتبه وكنزه الذي لم يجده بعد تتوحد ذاته مع الوجود وتندمج هويته مع عناصر الوجود >>فالهوية عند شلنج أن يكون الوجود مطابقا لنفسه دون انفصام<<⁴⁷ وعلى هذا الأساس يندمج الشاعر مع الوجود ويحاول أن يكشف العالم من خلال إحضار الوجود إلى عالم الشعر، وبعد ذلك تكشف الأشياء عن نفسها عن طريق اللغة فالإنسان لا يفهم العالم بواسطة اللغة بل من داخلها؛ ويشبه عمل الشاعر حيث يصور لنا هذا المقطع علاقة عميقة بين عالم اللغة والإبداع وعالم الفلسفة، فالاثنتان يحاولان تجاوز معقولية الوجود والتطلع إلى عالم الغيب ويسعيان إلى التطلع إلى عالم السر والغيب عبر اللغة باعتبارها بيت الكينونة بتعبير "هيدغير".

أفتق الأجراس والمرايا

وأوقظ الجذور والخلايا

تعشقني سوسنة الملح

ونحلة الجرح

يشتاقتني النخيل

/.../

في قصيدة الشرار

مضرجا بالياسمين

مثنخنا بوثن الشهادة

وحاملا

نبوءة الريح التي تأتي

وأبجدية الولادة⁴⁸

والى أن ينضج النص الشعري ويولد من رحم المعاناة والانكسارات، يتجرع الشاعر في كل لحظة من لحظات عمره آلاما فضيعة وحسرات لا تكاد تنقطع من أجل أن يطل النص الشعري ويولد كما تولد الأجدية ويحمل أجمل نبوءة، يمكن للشاعر أن يتنبأ بها.

خاتمة

مما سبق نستنتج أن الحديث في قضايا الفضاء الوجودي والهوية من القضايا الحديثة التي استرعت انتباه الأدباء بعد حلول عصر التنوير الداعي إلى فهم العالم بكشف جديد يخرج عن فهم القدماء. كما يهدف أيضا إلى توظيف الفضاء الوجودي ببعديه المكاني والزمني في محاولة تصور الشاعر إلى أمكنة وأزمنة يخرج بهما عن وجوده الفعلي ويعيش ضمن وجود تخيلي يوتوبي بغية أن يخفف عن وطأة وجوده الفعلي، وإعادة بناء هويته المحطمة بعد أن أصابها الوجود ببعديه الزمني والمكاني في صميمها من خلال إبداع نص شعري غير مألوف يتجاوز به مرحلة الانكسار إلى إثبات الذات واستعادة الهوية.

هوامش:

- 1- خمسي آدمي: المرجعيات المعرفية للمقدمة الطللية بين الجاهلية و صدر الإسلام- دراسة في النسق الثقافي، إشراف: عبد القادر داغمي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة باتنة 01، الجزائر 2016، 2017، (أطروحة دكتوراه)، ص: ب (المقدمة).
- 2- المرجع نفسه، ص: أ.
- 3- قبي حفيظ: بنار الزمان في رواية (أنثى السراب) لواسيني الأعرج، إشراف: محمد الهادي بوطبان، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات جامعة البويرة، الجزائر، 2015، (رسالة ماجستير)، ص: 13.
- 4- عثمان لوصيف: الإرهاصات، (د.ط)، دار هومة، الجزائر، 1997، ص: 44، 43.
- 5- المصدر نفسه، ص: 44.
- 6- المصدر نفسه، ص: 46.
- 7- زاوية مجاوي: من القصيدة إلى الكتابة تحولات النص الشعري في الكتاب لأدونيس، ط01، دار رؤية مصر، 2014، ص: 273.
- 8- محمد لطفي اليوسفي: لحظة المكاشفة الشعرية إطلالة على مدار الرعب، (د.ط)، الدار التونسية تونس 1992م، ص: 50.

- 9- عثمان لوصيف: أبجديات، (د.ط)، دار هومة، الجزائر، 1997، ص: 35، 36 .
- 10- أدونيس: موسيقى الحوت الأزرق الهوية الكتابة العنف، ط01، دار الآداب، بيروت، 2002، ص: 288.
- 11- عثمان لوصيف: أبجديات، ص: 46.
- 12- عثمان لوصيف: اللؤلؤة، (د.ط)، دار هومة، الجزائر، 1997، ص: 05.
- 13- لخضر هني: سيمياء الأتموزج في الشعر الجاهلي، ط01، دار أفكار، سوريا، 2019، ص: 20.
- 14- عثمان لوصيف: أبجديات ص: 50.
- 15- لخضر هني: سيمياء الأتموزج في الشعر الجاهلي، ص: 23.
- 16- راوية يحيياوي: من القصيدة إلى الكتابة تحولات النص الشعري في الكتاب لأدونيس، ص: 129، 131.
- 17- عثمان لوصيف: أبجديات، ص: 46.
- 18- المصدر نفسه، ص: 55.
- 19- محمد بن عياد: <<الزمن والشعر>>، مجلة علامات، المغرب، ع2002، 17م، ص: 40.
- 20- عثمان لوصيف: أبجديات ص 53
- 21- لخضر هني: سيمياء الأتموزج في الشعر الجاهلي، ص: 21.
- 22- عثمان لوصيف: نتمش وهديل، (د.ط)، دار هومة، الجزائر، (د.ت) ص: 52، 53.
- 23- راوية يحيياوي: من القصيدة إلى الكتابة تحولات النص الشعري في الكتاب لأدونيس، ص: 126.
- 24- عثمان لوصيف: أبجديات، ص: 76.
- 25- اعتدال عثمان: <<الشعر والموت في زمن الاستلاب قراءة في أوراق الغرفة 08 لأمل دنقل>> مجلة فصول، مصر، ع01، ديسمبر، 1983م، ص: 225.
- 26- عثمان لوصيف: نتمش وهديل، ص: 23.
- 27- عبد الوهاب المسيري: <<الشعراء والزمن>>، مجلة الكرمل، فلسطين، ع88 و89، يوليو 2006 ص: 94.
- 28- عادل ضاهر: <<قراءة فلسفية للكتاب>>، مجلة فصول، مصر، ع02، أبريل 1997، ص: 291.
- 29- عثمان لوصيف: نتمش وهديل، ص: 39.
- 30- المصدر نفسه، ص: 60، 61.
- 31- هشام باروق: الحداثة الشعرية: عند محمد عمران- أنا الذي رأيت أتموزجا، إشراف: الأخضر عيكوس جامعة منتوري، قسنطينة الجزائر، 2008م، (رسالة ماجستير)، ص: 10.
- 32- محمد راتب الحلاق: نحن والآخر (دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر)، (د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1997، ص: 53.
- 33- لويس معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ط19، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (د.ت)، ص: 875.

- 34- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية تع: خليل أحمد خليل، مج02، ط02، منشورات عويدات بيروت، 2001، ص: 607.
- 35- حسن حنفي حسنين: الهوية، ط01، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2012، ص: 11.
- 36- أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، تح وضبط: عبد السلام هارون، ج04، (د.ط)، دار الفكر، سوريا 1979، ص: 421.
- 37- عبد الإله الصائغ: الخطاب الشعري الحدائوي والصورة الفنية، ط01، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، 1999، ص: 301.
- 38- علي عبد الخالق: <<ظاهرة الاغتراب وصدائها في الشعر المعاصر بمنطقة الخليج>>، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، قطر، ع07، 1995م، ص: 99.
- 39- حسن حنفي حسنين: الهوية، ص: 24.
- 40- عثمان لوصيف: نتمش وهديل، ص: 50.
- 41- المصدر نفسه، ص: 51.
- 42- حسن حنفي حسنين: الهوية، ص: 44.
- 43- عثمان لوصيف: نتمش وهديل، ص: 61.
- 44- مارتن هيدغر: أصل العمل الفني، تر: أبو العيد دودو، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2001، ص: 97.
- 45- عثمان لوصيف: أعراس الملح، (د.ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص: 17.
- 46- المصدر نفسه، ص: 24.
- 47- عبد الكريم شرقي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2007، ص: 112.
- 48- عثمان لوصيف: أعراس الملح، ص: 24.